

سلسلة مكتبة التابعية

(١)

فقهاء أهل الكنفسيين

(٢) عمروة بن الربير

تأليف

عبد المنعم الشاعري

دار ابن ثير

دمشق - بيروت

١٤١٢ هـ - ١٩٩٣ م

عروة بن الزبير

قال عروة بن الزبير وهو ينصح أبناءه: يا بني إذا رأيتم من رجُلٍ فعلَة خَيْرٌ رائعةً فامْلوا منه خَيْرًا ولو كان في نَظر الناس رجُلٌ سوءٌ، فإن لها عنده أخواتٍ. وإذا رأيتم من رجُلٍ فعلَة شَرٌّ فظِيْعَةً فاحذروه، وإن كان في نَظر الناس رجُلٌ خَيْرٌ، فإن لها عنده أخواتٍ أيضًا. واعلموا أن الحَسَنَةَ تَدْلُّ على أخواتها، وأن السَّيِّنةَ تَدْلُّ على أخواتها أيضًا... .

هذه بلاغة الفقيه عروة بن الزبير؛ الذي نال ما تمنى فأصاب فيه، فهل هناك أَجَلٌ من تَمْنُنِ العلم؟ وقد استجابَ الله له ما تمنى فأصبح الحلم حقيقة شاخصة تنفع الناس. ولكن ما هي قصة تمني هذا الرجل؟ إنها جلسة صفاء بين صفوة من رجال الإسلام تمنى فيها كلُّ منهم ما رغب في حجر الكعبة وبين جنبات بيت الله الحرام الصفوة وهم: مصعب بن الزبير، وعبد الله بن الزبير، وعروة بن الزبير «أبناء حواري رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام» وعبد الله بن خمر. . وتمنى الرجال ولكلِّ منهم أمنيته كما سترى.

فقال عروة: أتمنى أن يؤخذ عنِي العلم.
وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق.
وقال عبد الله: أما أنا، فأتمنى الخلافة.
وقال ابن عمر: أتمنى المغفرة، ولعله قد نال ما تمنى^(١).

وقد تحقق للثلاثة أبناء الزبير ما تمنوه فعبد الله يُوضع
بالخلافة عقب موت يزيد بن معاوية وهو ثاني خلفاء بني أمية
ثم قُتل في مكة وفيه موضع قريب من مكانة الذي تمنى فيه.
وأما مصعب فقد تولى بعد مقتل أخيه وقتل أيضاً دفاعاً عن
ولايته.

أما عروة بن الزبير فقد تحقق حلمه ونال أمنيته بعد سنوات
جهد طويلة استخدم فيها إرادة رجل لا تلين في سبيل تحقيق
هدفه، وعزيمة عالم لا تفتر عن البحث والاستقصاء، لكن
لكل هذا الجهد وتلك العزيمة قصة طويلة وحياة عريضة
نبدأها من نقطة البدء، فهل نخطو خطوات في صحبة هذا
الحواري العظيم عروة بن الزبير؟

(١) هذه رواية الذهبي في سير أعلام النبلاء ص ٤٣١ وجاءت الرواية في
الحلية لأبي نعيم ج ٢ ص ١١٦ وتاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢٨٨
وقد ذكر في بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان بدلاً من ابن عمر
وهو الذي تمنى الخلافة.

- ٢ -

نسبة ونشأته

عروة بن الزبير بن العوام، ابن حواري رسول الله وصاحب الرسبي بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب.

جداته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عممة رسول الله ﷺ.

وهو الإمام عالم المدينة، أبو عبد الله القرشي، المدنى، الفقيه، أحد الفقهاء السبعة^(١).

أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق الملقبة بذات النطاقين، لأنها شقت نطاقها شفين يوم هجرة رسول الله لترتبط بأحدهما مزود رسول الله ﷺ وبالثاني سقاءه.

حالته هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أي نسب أشرف من هذا النسب! إنه نسب ابن الزبير بن العوام القرشي وحواري رسول الله، بل من أقرب وأحب حواريه وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ولد عروة بن الزبير في خلافة عثمان بن عفان، وقد قيل^(٢)

(١) سير أعلام البلاط للذهبي ج ٤ ص ٤٢١، الترجمة ٦٨، وفيات الأعيان ج ٣، ص ٢٥٥.

(٢) قيل أنه ولد سنة تسع وعشرين أو لست سينين خلت من خلافة عثمان في تاريخ ابن عساكر.

أنه ولد سنة ثلثة وعشرين هجرية. تلقى العلم والرواية على
خالته السيدة عائشة رضي الله عنها، وها هو ابن شهاب
الزهري يروي عن رجل عاصر عروة وهو قبيصه بن نؤيب
الذي قال :

«كنا في خلافة معاوية، والى آخرها نجتمع في حلقة
المسجد، بالليل، أنا ومصعب وعروة ابنا الزبير،
وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وكنا نتفرق بالنهار، فكنت
أنا أجالس زيد بن ثابت».

وكان زيد بن ثابت رئيساً للقضاء في المدينة والفتوى
والقراءة والفرائض في عهد عمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي
ابن أبي طالب رضي الله عنهم. ترى في أي مكان كان عروة
يذهب نارك أصحابه !

- ٣ -

العالم الفقيه

«العلم لواحد من ثلاثة: الذي حسب يزيئه به، أو ذي دين
يسوس به دينه، أو مختلط بسلطان يتغافله بعلمه، ولا أعلم
أحداً أشرط لهذه الخلال من عروة وعمر بن عبد العزيز».
أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

يقول قبيصه بن نؤيب: كنت أنا وأبو بكر بن عبد الرحمن
نجالس أبيا هريرة، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة^(١).

(١) تاريخ ابن عساكر.

ظل عروة بنهل من علم خالته أم المؤمنين عائشة حتى وعى كل حديث عندها،وها هو يتحدث إلى أبنائه ومنهم هشام وقد كانوا شباباً: «ما لكم لا تعلمون، إن تكونوا صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم، وما خير الشيخ أن يكون شيخاً وهو جاهل»، لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربعين حججاً (ستين) وأنا أقول: لو ماتتاليوم ما ندحت على حديث عندها إلا قد وعيته»^(١).

هكذا وعى عروة كلَّ ما روت عائشة فقد كان حافظاً يملك ذاكرة عظيمة، شهد له كثير من علماء عصره وأشرافهم بالعلم، وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الذي قال: «ما أجد أعلم من عروة بن الزبير، وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله».

ولذلك استعان به عمر بن عبد العزيز كعالم من علماء المدينة وفقيه من فقهائها العظام، وعندما قدم عمر إلى المدينة والياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك جاءه الناس فسلموا عليه، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة ومن بينهم عروة بن الزبير؛ فلما صاروا عنده رحب بهم، وأكرم مجالستهم، ثم حمد الله عز وجل وأثنى عليه وقال: «إنني دعوتكم لأمر تؤجزون عليه وتكونون لي فيه أعوناً على الحق»، فانا لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، أو برأي من

(١) الحلية لأبي نعيم.

حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعذر على أحد، أو يلغكم عن عاملٍ لي مظلمةً فأسألكم بالله أن تبلغوني ذلك».

عند ذلك دعا له عروة بن الزبير بخير، وتحنى له المداد والرشاد من الله عز وجل.

وقد تحدث ابن شهاب الزهرى أحد تلاميذ عروة عنه فقال: «رأيت عروة بحراً لا تكدره الدلاء». هكذا شهد له أحد تلاميذه النجاء الفقيه، ابن شهاب الزهرى الذى لم يكتفى بهذه الكلمات، وإنما راح يسرد مواقف علم عن عالم كان علماً في عصره. يقول ابن شهاب الزهرى: «سألت ابن ضعير (وهو أحد شيوخ الزهرى) عن شيء من الفقه فقال: عليك بهذا وأشار إلى سعيد بن المسيب، فجالسته سبع سنين، لا أرى أن عالماً غيره، ثم تحولت إلى عروة، ففجئت به ثبع بحر».

نعم إنه عروة بن الزبير، فقد كان الصحابة بسالونه، وكم تألف الناس على حديثه، ولكنه انطبق عليه قولهم (أزهد الناس في عالم أهله)، فقد أحرق ابنه هشام كتاباً له فيها فقه؛ فقال والحسنة تملأ قلبه: «لرددت لو أتي كنت فديتها بأهلي ومالي».

كان راوياً للشعر، ولما سُئل: ما أرواك الشعر؟! قال:

(۱) تاريخ ابن عساكر ۲۸۰ / ۱۱.

روايتي من رواية عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنسنت
فيه شعراً.

وها هو عروة الشاعر يقول عن قصره بالعقيق «وهو موضع
بناحية في المدينة»:

بَنَيْنَا فَأَخْسَنَّا بُنَاءً
بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ الْعَقِيقِ
تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ شَزْرًا
يَلْوَحُ لَهُمْ عَلَى وَضْعِ الْطَّرِيقِ
فَسَاءَ الْكَاشِحِينَ وَكَانَ غَيْظًا
لِأَعْدَائِي وَسُرَّ بِهِ حَسَدِيَّيِ
بَرَاءُ كُلِّ مُخْتَلِفٍ وَسَارِ
وَمُعْتَمِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(١)

هكذا كان عروة شاعراً وفقيهاً، ولا ضير في ذلك فقد جاء
الإمام الشافعي بأجمل قصائد الشعر وأعظم دروس الفقه،
فكان شعره تسابيع، كما كان فقهه دروساً وعبرة لكل مجتهد
يريد أن يتعلم دينه بلغته من خلال علمه لدينه.

(1) المصدر السابق.

العبد الفقيه

كان عُروة بن الزبير، ثقة، ثبتاً، مأموناً في حديثه وروايته،
كثير الحديث فقيهاً عالماً^(١).

كان رحمة الله مدنياً، ثقة، رجلاً صالحًا، لم يدخل في
شيءٍ من الفتن.

تحدث الرجل عن نفسه قليلاً، فكان لا يحب أن يذكر
 شيئاً يمدح به نفسه، وها هو يتحدث أمام تلميذه النابغة ابن
شهاب الزهري فيقول: كنت علاماً، لي ذؤابتان، فقامت
أركع ركعتين بعد العصر، فبصّر ابن عمر ومعه الدهر (عصا
كان يمسكها) فلما رأيته، فررت منه فلحقني، فأخذ
بلوائي، فنهاني فقلت له لا أعود.

وقد جمَع عُروة بن الزبير العلم إلى العمل، فبقدر فقهه
كانت عبادته، فقد كان صواماً في الهواجر رغم شدة حرها. يقول
عنه ابنه هشام: «إن أبي كان يصوم الدهر إلا يوم الفطر ويوم
النحر، ومات وهو صائم»^(٢).

كان رحمة الله قواماً في ظلمة الليل رطب اللسان دائمًا
بذكر الله تعالى، وكان مصاحباً لكتاب الله عز وجل،

(١) هذا الوصف جاء في طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق.

عاكفاً على تلاوته، فكان يقرأ ربع القرآن كُلَّ النهار نظراً في المصحف، ثم يقوم به الليل تلاوة عن ظهر قلب»^(١). أرأيت أكثر بركة من رجل كهذا؟! أعرفتم أكثر ارتباطاً بكتاب الله من عروة بن الزبير فقيه المدينة وشيخ من شيوخها السبعة؟.

كان رضوان الله عليه يجد سكينته في الصلاة، فهي قرءان عينه، وجهه الكبير على الأرض فكان يتلقنها أتم الاتقان، وطيلها غاية الطول، وهذا هو يقول كلمة حق ونصيحة إيمان لآخر له في الإسلام، حين رأه يصلِّي صلاة سريعة خفيفة، فانتظر فراغه من الصلاة، وتوجه إليه بالحديث قائلاً: يا بنَ أخي أما كانت لك عند الله عزوجل حاجة؟!

والله إنني لأسألك وتعالى في صلاتي كُلُّ شيءٍ حتى الجملح. وهذا هو يقول لابنه هشام أيضاً: ربِّ كلمة ذلتْ احتملتُها أورثتني عِزَّاً طويلاً^(٢).

ولو تأملنا عبارات عروة لوجدنا أنها تتم عن فقيه عالم وأديب متمكن ورجل ورع نقى؛ فعندما يقول: «ما حدثت أحداً بشيءٍ من العلمٍ فطلاً لا يبلغه عقله (أي لا يفهمه) إلا كان ضلالاً عليه» فإنه يصوغ قاعدة عريضة.

اليس في هذه الصياغة خير الحكمة وأحسن قول

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٤٢٦.

(٢) طبقات ابن سعد - والحلية ج ٢ ص ١٧٧.

الحكماء. نعم ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١) الآية.

- ٥ -

الكريم السمح

كان عروة بن الزبير رضوان الله عليه سخيّ اليد كريماً، سمحاً جواداً لا يدخل بمال عن أهل مدنه المنورة؛ فقد حفر بئراً بالمدينة، وما بالمدينة أعدب من مائتها.

وقد حفر هذا البئر في أرض اشتراها أخوه عبد الله بن الزبير من معاوية بن أبي سفيان في المدينة بمائة ألف دينار، وقسمها فيبني أسد وتميم، ونال منها عروة موضع البئر الذي حفره بيده؛ فاستسقى منه أهل المدينة.

ومما أثير عن جودته أنه كان له بستان من أعظم بساتين المدينة، عذب المياه، ظليل الأشجار، يانع الثمار، يasic الخيل، وكان يجعل لبساته سوراً طوال العام لحماية أشجاره من أذى الماشية وعبيث الصبية، حتى جاءه وقت الرطب وأنعم الخيل قبل أن يصير تمراً وأينعت الثمار وطابت، واشتهر التفوس تناولها والتمتع بأكلها، عند ذلك قام عروة بن الزبير بكسر حائط بستانه في الشمال والجنوب وكل الجهات التي نظرواها أقدام الناس، حتى يدخلوه، ويأكلوا من ثمرة ما لذ

(١) سورة البقرة ٢/٢٦٩.

لهم الأكلُ، وبحملوا منه ما طاب لهم حمله. أليس هذا العمل تنفيذاً لقوله عز وجل: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا اثْمَرَ وَاتَّوْا حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(١) الآية.

كان عروة بن الزبير كلما دخل بستانه المبارك ردّ قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ﴾^(٢).

هذا هو السخاء والكرم في عَرْف عروة بن الزبير؛ المال مال الله، إذا كان هناك حرص عليه فلأجل سد حاجة ضرورية، والإكتفاء بالكافاف، فالدنيا وما عليها، لن يرثها أحد ممن يريد الله عز وجل أن يعيشوا على ظهرها، سيرث الله الأرض وما عليها من مال وكنوز، فالمال لله، والرزق من عنده يُؤتى من يشاء.

فما وضع من ثمار على قمم النخيل وفي عصارة الزهور والغصون فمن عند الله عز وجل، فمن على وجه الأرض يزرع ومن حسابه قيمة الحصاد؟ إن البشرية جمعاء تبذل الجهد وتأتي الثمار من الله؛ الأقدار وحدها هي التي توحى ببذل الجهد، وتأتي ثمار هذا الجهد مفتلة من الله عز وجل.

لذلك كان المال والثمار والبساتين عند عروة بن الزبير

(١) سورة الأنعام ٦/١٤٦.

(٢) سورة الكهف الآية: ٣٩.

قيمتها فيما ينفع الناس ومن حلالها، فقدم منها للناس دون حرص عليها، فزاد الشمر، ولم يتم عروة بن الزبير ليلة واحدة جائعاً، بل آتاه الله من فضله، وهذا هو يستشهد بحالته أم المؤمنين رضوان الله عليها؛ عندما دعا الناس إلى عدم الإسراف ومنعهم من الجنوح إلى الترف والتبذير، ويلين جانبهم إلى نعيم الدنيا، ومن ذلك ما ذكره عنه رجل من معاصريه التابعين حين قال:

لقيني عروة بن الزبير فأخذ بيدي وقال: يا أبا عبد الله.
فقلت: ليك.

فقال: دخلت على أمي عائشة رضي الله عنها فقالت:
يا بنى.

فقلت: ليك يا أماه.

فقالت: والله لقد كنا نمكث أربعين ليلة ما نوقد في بيت
رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ب النار مصباحاً ولا غيره.

فقلت: يا أمه، فيمَ كتم تعيشون؟!

فقالت: بالأسودين؛ التمر والماء.

كان لا يعلَّ من دعوة الناس إلى التفقه في دينه، ولما بني
قصره في العقيق في موضع بناحية المدينة جاءه من يقول
معاتباً: جفوت مسجد رسول الله!

فقال: رأيت مساجدهم لاهبة، وأسوافهم لاغيبة،

والفاحشة في فجاجهم عاليّة، فكان فيما هنالك - عما هم فيه - عافية^(١).

هكذا كان عروة بن الزبير غيوراً على دينه وأداء أهله لشرائع الله سبحانه، فلم يقرّ اللهو عند المساجد، واللغو في الحديث في الأسواق، والقضاء على الفاحشة في جذورها؛ مما يجعل كل هذه الأشياء مواصفات يجب أن يتخلّى بها رجال الإسلام ليس في المدينة فقط، أو في عصره فقط، وإنما في كل زمان ومكان، يقول فيه الناس لا إله إلا الله محمد رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ سَلَامًا.

- ٥ -

الزواج المبارك

بينما كان جمهور من الصحابة والتابعين لهم بـالإحسان رضوان الله عليهم جميعاً يطوفون حول بيت الله الحرام الذي بارك الله من حوله، بينما هم على هذا الحال إذ لمع عروة بن الزبير عبد الله بن عمر رضوان الله عليه في زحام الطائفين الخاشعين الملبيين رافعاً يديه إلى ربه، طالباً ما تمناه ألا وهو المغفرة من الله عزّ وجلّ حيث كانت هذه إحدى أماناته العظام.

في هذا المشهد المبارك اقترب عروة بن الزبير بن العوام من ابن عمر وقال: أرّغب في الزواج من سودة ابنةك

(١) تاريخ ابن عساكر ج ١١ ص ٢٩٢.

يا عماء؛ فنظر إليه عبد الله بن عمر ولسانه رطب بمناجاة ربه، ولم يجده بشيء وانصرف إلى ما هو فيه من طواف وعبادة.

وانتهى الطواف، وعاد الفقهاء من التابعين وأصحاب رسول الله إلى المدينة المنورة حيث سكن الرسول، واستقرت قيادة الدولة الإسلامية فيها. عاد عروة بن الزبير إلى داره في العقيق وعاد عبد الله بن عمر إلى داره. ترى هل ترك عروة هذا الأمر وانصرف عنه؟ لا.. بل تاقت نفسه إلى العودة إلى خطوبة سودة بنت عبد الله بن عمر مرة أخرى من دار أبيها في المدينة؛ ولترك الفقيه الشيخ يكمل لنا قصة زواجه المبارك، قال عروة: خطبتك إلى ابن عمر بنته سودة ونحن في الطواف فلم يجئني بشيء؛ فلما دخلت المدينة بعده، مضيت إليه، فقال: أكنت ذكرت سودة؟

قلت: نعم.

قال: إنك ذكرتها ونحن في الطواف يتخايل الله بين أعيننا، أفلأك فيها حاجة؟ عند ذلك تهلل وجه عروة بن الزبير، واستبشر باستجابة ابن عمر لهذه المصاهرة الكريمة وأجايه قائلاً: أحرضن ما كنت؟

التف ابن عمر إلى غلامه قائلاً: ادع عبد الله بن عبد الله (يقصد ابنه عبد الله) ونافعاً مولى عبد الله^(١).

(١) أصبح نافع مولى عبد الله بن عمر فيما بعد أكثر الرواية عنه وكان ثقة في روایته ويعتبر من أصحاب العلم والفقه المشهورين في عصر التابعين.

عند ذلك قال عروة مكملًا حديث صهوة: فوافق الرجل
بإيماءة منه.

وجاء عبد الله ابنه، ونافع أحد مواليه فقال لهما: هذا
عروة بن أبي عبد الله (يقصد الزبير بن العوام) وقد علمتـما
حاله، وقد خطب إلى سودة، وقد زوجته إياها، بما جعل الله
للمسلمات على المسلمين من إمساكٍ بمعروفٍ أو تسریعٍ
بإحسان، وعلى أن يستحلـها بما يستحلـ به مثله.

ونظر ابن عمر إلى صهوة عروة وقال: أقبلت يا عروة؟

قال عروة: نعم قلتـ.

قال ابن عمر: بارك الله لك^(۱).

وتم الزواج المبارك بين عروة بن الزبير بن العوام، وسودة
بنت عبد الله بن عمر التقي الورع، الصحابي الثقة، ابن
خليفة رسول الله عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين،
وانصرف عروة لعلمه وفقه، وحفظ كل ما روى خالته
عائشة، فروى عنها وعن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم علي بن
أبي طالب، وأبي هريرة وابن عباس، وابن عمر، وعمرو بن
 العاص، وابنه عبد الله بن ععرو، وأبي أيوب الأنصاري،
والمحيرة بن شعبة وغيرهم.

(۱) تاريخ ابن عساكر، سير أعلام النبلاء للذهبي ج ۴ ص ۴۳۲، ترجمة رقم ۱۶۸.

وأنجب عروة أربعة أبناء هم: يحيى وعثمان وهشام ومحمد، وكانوا من أكثر الناس رواية عنه، أما أشهرهم في الرواية عن أبيه فهو هشام بن عروة بن الزبير.

كما روى عن عروة أيضاً ابن شهاب الزهري وهو أشهر تلاميذه، وأبو الزناد، وسليمان بن يسار أحد الفقهاء السبعة الذين زاملوه في الدرس وسمعوا منه فرروا عنه.

- ٦ -

الفقيه المربّي

كما نشأ عروة بن الزبير في مجالس العلم والأدب والفقه، أراد أن ينقل لأبنائه شمائل التقوى وخصال الفلاح، ومثاعل الخير، ولذلك فقد اهتم أكثر ما يهتم بتربية أولاده خاصة، فلم يترك فرصة واته لتوجيههم إلا اغتنمتها بكل ما يملك، فينصح نصح العاقل العالم، فإن العاقل لا يترك الرأي والجهد في ذلك، إنه حريص على حتى أولاده على طلب العلم، إذ كان يقول لهم: «يا بني تعلموا العلم، وابذلوا له حُقُّه فإنكم إن تكونوا صغارَ قوم فعسى أن يجعلكم الله بالعلم كُبراءُهم».

وكان يحدث نفسه دائمًا أمام أبنائه فيقول: واسْؤَاتاه، هل في الدنيا شيء أقبح من شيخ جاهل؟!

وكان دائم القول لهم: يا بني، لا يُهدين أحدكم إلى ربه ما يستحب أن يُهديه إلى عزيز قومه، فإن الله تعالى أعز الأعزاء، وأكرم من سئل، وأحق أن يختار له...

إنها التربية الإسلامية الحقة لجيل الناشئة الإسلامي؛ الصدق مع النفس ومع الله ومع الناس، السعي للعلم مع التنشئة بشاره والتي يبثها عروة بن الزبير كأمانة يتمناها لهم، فهو لا يملك لهم من أمرهم شيئاً، وإنما الأمر لله، فعندما دعاهم للعلم أشار إلى ثمار هذه النصيحة لو سمعوها بقوله: عسى أن يجعلكم الله بالعلم كبراءهم. كان يوصيهم دائمًا بليل الجانب، وحسن المعاشر، وطيب الحديث. أي نصح وتربية أفعى وأحسن وأحدث من كلمات فقيه المدينة الشيخ عروة بن الزبير:

- ٧ -

امتحان المؤمن

أراد الله عز وجل أن يمتحن عروة بن الزبير، وانصرفت مشيئته عز وجل إلى أن يمتحن عروة بن الزبير بقدر إيمانه القوي امتحاناً لا يثبت له إلا أهل التقوى، وذرو الأفئدة التي ملأها الإيمان، وفاقت بالخشوع لله عز وجل.

لقد كان الخلفاء في عصربني أمية يجلّون فقهاء المدينة ويعتّرون بهم، ومن ذلك الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي دعا عروة بن الزبير لزيارةه في دمشق، فلابدّ عروة دعوته وصاحب معه أكبر بنيه، وبوصوله دمشق لقي من الترحيب ما يناسب مقام العلماء و شأنهم لدى الخليفة الذي رحب بمقدمه أعظم الترحيب، وبالغ في الحفاوة به، فأفسح له المجلس، وأطلق له العنان ليرى من مباح قصره، وطبيعة دمشق ما يرى، ويتمتع نفسه وابنه، وكان من الطبيعي أن يأخذ عروة مكانه في مجلس الخليفة بينما كان ابنه يخلو لسباق خيل أو اسفل استطلاع ومعرفة لهذا المكان وتلك الأشياء المحببة للفتية والغلمان.

فكان مما أخذ بقلب ابن عروة مربط الخيل واصطبلاها الموجود في ناحية من القصر، وبينما هو يسرح ويمرح بين جياد الخليفة الصاقفات إذ بواحدة منها تضرّبه خربات قاضية؛ فترفسه في وجهه وجسمه فيلقى على الأرض بينما تطوه أقدام البقية الباقيه من الخيل التي انطلقت تمرّ فوق جسمه حتى أودت بحياته. وفجع عروة بن الزبير بوفاة ابنه، فاحتسبه عند الله، ولم يجد بدأً من الإذعان إلى أمر الله سبحانه وتعالى فسوى له قبره، وواراه التراب بيده، وعاد حزيناً تأخذه الحشرات، فيعالجها بالصبر والتصوّي، وتنال منه عاطفة الآباء فيقتفي أثر الصابرين الممتحنين مسترجعاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّا لِهِ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

ولم تمر أيام على هذه المحنة حتى شعر عروة وهو جالس في مجلس الخليفة، ساهم الفكير، يردد آيات القرآن الكريم بلسانه الرطب بذكر الله عسى أن يمنحه الصبر فيما أصابه، وبينما هو على هذه الحال إذ بالآلام في ساقه، فتذكر أن هذه الآلام قد بدأت عند خروجه إلى الوليد بن عبد الملك في وادي القرى، ولقد وجد في هذا اليوم في رجله شيئاً من الألم، ثم تبعته فرحة فيها فعاني منها الكثير،وها هو قد عاودته الآلام بشدة، فلم يعد قادراً على الاحتمال، إذ تورمت ساقه، وانتشر الورم بسرعة مذهلة.

عند ذلك استدعي الخليفة لضيوفه عروة بن الزبير الأطباء وحثّهم على معالجته بكل ما أوتوا من علم الطب وفنونه.

وبعد فحص دقيق أجمع الأطباء على ضرورة بتر ساق عروة حتى يتوقف زحف هذه الأكلة اللعينة إلى بقية جسمه، فيتورم ويقضي المرض عليه.

امثل عروة لرأي الأطباء، وأسلم الأمر كله لله، وجاء الطبيب ليُبتر ساقه ومعه أداة البتر والنشر، وكان لا بد من تخدير عروة لما عُرف عن الآلام التي تصاحب بتر وقطع جزء من جسد الإنسان، فقال الطبيب لعروة:

(١) سورة البقرة / ٢٥٦.

سوف نسقيك جرعة من مُنْكِرِ لكيلاً تشعر بالآلام البَرْ والتي ستكون مُبْرحة شديدة الألم.

فقال: لا، لا أستعين بحرام على ما أرجوه من العافية.

فقال الطبيب: إن هذا الأمر جد خطير ولا بد من مُخدر قبل البَرْ، وأخشى أن تهتزونحن نؤدي عملنا فيكون فيه ضرر لك.

فقال عروة من إيمان الفقيه ونقوى العبد الطائع لربه المؤمن بقضائه وقدره: «ما أحب أن أسلب عُضواً من أعضائي دون أنأشعر بآلمه، وأحتسب ذلك عند الله».

عند ذلك جاء الطبيب بطائفة من الرجال ليمسكوه خوفاً من تحريك جسمه أثناء العمل فرفض قائلاً: لا حاجة لي بهم، سأنصرف إلى الذكر والتسبيح وأنتم تؤدون عملكم، وأقبل الطبيب عليه وشرع بكشط اللحم عن ساقه، وجيء بالمنشار وبدأ الطبيب نَثَر الساق وعروة يكبر ويسبح حتى بَرَّت ساقه.

ولابد لوقف التزيف في جراح كهذه من على الزيت وغمس الجراح فيه، حتى يوقف تدفق الدم ومعالجة الجراح، وهنا راح عروة في غيبوبة طويلة، ذكر المؤرخون أنه اليوم الوحيد الذي لم يقرأ فيه القرآن أو حصته اليومية منه منذ أن

أصبح شاباً حافظاً له قارئاً لآياته.

وأفاق من غيبته ونظر حوله فشاهد قدمه المبتورة وقد وضعه في إماء فأشار إليها قائلاً: «أما والذى حملنى خليك في عتمات الليل إلى المساجد إنه لعلم أنى ما فشيت بك إلى حرامٍ قطٍ»^(١).

سمع الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين بخبر قطع ساق عروة وما كان منه أثناء قطع ساقه؛ فما زاد أثناء بتر الساق عن التهليل والتکبير وكلما اشتد عليه الألم قال كلمة: «حس، حس»، وهي كلمة تقال عند شدة الألم.

قال الوليد: ما رأيت شيئاً قط أصبر من عروة بن الزبير.

واراد الخليفة أن يعزّي عروة في نفسه وفي ابنه فإن مصابه فادح ولا يدرى كيف يكون عزاؤه؛ فبينما هو على هذه الحال أقبل عليه وفد منبني عبس فيهم رجل ضرير، فسأله الوليد عن سبب كف بصره فقال: يا أمير المؤمنين لم يكن منبني عبس رجُل أوفر مني مالاً، ولا أكثر أهلاً و ولداً، فترلت معي مالي وعيالي في بطن وادي من منازل قومي، فطرقنا سيل نم نهر مثله قط.

فذهب السيل بما كان لي من مال وأهل وولد، ولم يترك

(١) تاريخ ابن عساكر ج ١١ ص ٢٨٧، سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٤٣١.

لي غير بعير واحد و طفل صغير حديث الولادة.

وكان البعير صعباً فشِرد مني ، فتركَت الصبي على الأرض
ولحقت بالبعير؛ فلم أجاوز مكاني قليلاً حتى سمعت صيحة
الطفل ، فالتفت فإذا برأسه في فم الذئب وهو يأكله ، فبادرت
إليه غير أني لم استطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه.

للحقت بالبعير؟ فلما دنوت منه رمانبي برجله على وجهي
رمية حطمت جبيني وذهب بيصري»^(١).

هكذا كانت محنَة الرجل بالنسبة لمحنة عروة مجحنة فقد
فقد أهله و ولده و ماله وبصره.

عند ذلك رأى الوليد بن عبد الملك أن يخفف عن عالم
المدينة وفقيها بأن يرسل بهذا الرجل مع أحد حراسه إلى
عروة، ليعلم أن في الناس من هو أكثر بلاءً منه وأعظم مصيبة
من مصيبة.

فانطلق الرجل وال حاجب، فقص على عروة بن الزبير
القصة، فاسترجع واحتسب كل هذا عند الله سبحانه،
وكان مثلاً للمؤمن الممتحن الصابر على البلاء العابد النقي
في السراء والضراء.

(١) عبد الرحمن راقت الباشا في صور من حياة التابعين ج ١ ص ٧٨، ٧٩.

ولم تمض أيام حتى حُمل عروة بن الزبير إلى المدينة حيث أهله وتلاميذه ومربيوه الذين افتقدوا وجوده طوال هذه الفترة الزمنية، وعندما وصل الركب وادي القرى بالقرب من مكة، هتف عروة قائلاً وهو يتضرع إلى السماء:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافُ أَرْبَعَةٍ فَأَخْذَتْ مِنْهُمْ وَاحِدًا، وَأَبْقَيْتَ ثَلَاثَةَ فِلْكَ الْحَمْدِ، وَكَانَ لِي بَنْوَنَ أَرْبَعَةٍ فَأَخْذَتْ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتَ لِي ثَلَاثَةَ فِلْكَ الْحَمْدِ، وَأَنْتَمُ اللَّهُ لَئِنْ أَخْذَتْ لَقْدَ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنْ أَبْلَيْتَ طَالِمَا عَافَيْتَ»^(١).

نعم لئن أخذ الله منه قليلاً فقد أعطاه كثيراً، ولئن ابتلاه مرة فقد عفاه مرات. هذه هي نعمة الشكر لله، والصبر على النوازل، اختص الله بها أحد عباده التابعين بإحسان رضوان الله عليه.

وصل عروة المدينة وامتلاء داره بالعقيق بالزائرين والمواسين والمعززين، ودخل على الرجل عيسى بن طلحة، فرحب به وقال لابنه: اكشف يابني لعمك عن رجلي، ففعل الفتى، فقال عيسى بن طلحة:

إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع، ولا للسياق، ولقد أبقى الله منك لنا ما كنا نحتاج إليه، رأيك وعلمهك.

فأخذت هذه الكلمات بنفس عروة، وحملها بمشاعر وفاء

(١) الحلية لأبي نعيم ج ٢ ص ١٧٩.

التلعيم لاستاذه فنظر إليه في امتنان وحب وقال: يا عيسى ما عزّاني أحدٌ مثلك»^(١).

ولم يكُد ينصرف عيسى عن شيخه خارجاً من الدار؛ حتى أقبل عليه رجل آخر هو إبراهيم بن محمد بن طلحة فحياه وقال له: «والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أرب في السعي، وقد تقدمك عضو من أعضائك، وابن من أبنائك إلى الجنة، والكل يَتَّبعُ البعض إن شاء الله، وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء، من علمك ورأيك، والله ولِي شوابك والضمير بحسابك».

شكر عروة بن الزبير ضيفه واحتسب ما أصحابه عند الله عزّ وجلّ، ونظر إلى بيته نظرة العالم وقال لهم:

«يا بني، سلوني، فقد تركت حتى كدت أنسى، وإنني لأسأل عن الحديث فيفتح لي حديث يومين»^(٢).

واستمر توارد الناس عليه في داره بالحقيقة، وكان كلما سُئل عما أصحابه قال: «لقد لقينا من سفرينا هذا نصباً»^(٣).

خلل الرجل يقدم علمه للتلاميذه ومربيده في المدينة فكان يقول: إذا رأى أحدكم شيئاً من زينة الدنيا وزهرتها فليأت

(١) تاريخ ابن عساكر ٦/١١، سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٣٤.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٧٩.

(٣) سورة الكهف ٦٢/١٨.

أهلها، ولپأمرهم بالصلوة، ولیصطبر عليها، ثم يرد قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَمْدُنْ عَيْنِيَكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتَنُهُمْ فِيهِ﴾^(۱).

ومما روي من أحاديث لرسول الله عن عروة، قال عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عَيْرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبُّهُوا بِالْيَهُودِ﴾^(۲).

وبعد حياة حافلة نصبها التقوى عاش فيها عروة بن الزبير واحداً وسبعين عاماً مملوءة بالعلم والفقه، ومغمورة بالتقى والصلوة، جاءه عروة أجله المحتوم، وكان حائطاً، وكلما نصحه أبناءه أن أفطر، ظل على صيامه؛ تقرباً لربه، وثباتاً على دينه، ترى أين كان فطر عروة؟.

حسبي أنه كان في الجنة، حيث هي المأوى.

ترى ما كان فطراه؟ هنيئاً بنهر الكوثر. إنه أحد التابعين بإحسان، هذا شوابه، أما طعامه فما يكون في الجنة إلا لحم طير مما يشتهون يسقيه ولدان مخلدون بأكواب وأباريق من فضة، ذلك ما تمنى، وهل هناك أجمل من جنة الخلد. رحم الله فقيه المدينة عروة بن الزبير.

(۱) سورة طه ۲۰/۱۳۱.

(۲) رواه أحمد في مسنده.